تعليم اللغة السريانية الرسمي في الدولة العراقية (1921-2010)

روبين بيت شموئيل

توطئة:

تشكل اللغة السريانية احدى الحلقات المتميزة في موضوعة اللغات العراقية القديمة، فتواصلها الحضاري وخصائصها اللغوية تمتد الى ميراث الأكدية المسمارية والآرامية الابجدية. ولا يخفى ان شريحة مهمة وفاعلة في فسيفساء العراق تنتمي اليها وجوداً وثقافةً، حياة وطموحاً. فالسريانية لا زالت حية في شفاه آشوريي اليوم الذين حرث وزرع اجدادهم أرض النهرين منذ أكثر من ستة الاف سنة، وحرس ثورهم المجنح هويتها الوطنية منذ ذلك التاريخ. في كل هذه الحقبة الطويلة تمسك ورثة السريانية بلغتهم القومية رغم هول الظروف القسرية والمآساوية التي اكتنفت صراعهم مع البقاء، فماضيهم الموشح بالظلم والغبن والمذابح والاضطهاد والتعريب لم يثنهم من التشبث المزمن بها نطقاً وكتابة ونشراً وتعليماً.

التعليم السرياني:

تزامن تعليم اللغة السريانية الرسمي في العراق مع تشكيل دولة العراق الحديث في 23 آب 1921، ونقصد بالتعليم الرسمي المدارس التابعة الى وزارات التربية ومديريات المعارف في الدولة العراقية وليس المدارس او المعاهد التابعة الى الكنائس او المؤسسات الدينية المسيحية ونخص بالذكر معهدي شمعون الصفا التابع الى الكنيسة الكلدانية ومار يوحنا الحبيب التابع الى الأباء الدومنيكان وغيرهم. كانت مدارس العراق الرسمية يومذاك اما حكومية لغة التدريس فيها هي العربية، او غير حكومية خاصة بالقوميات والطوائف العراقية غير العربية. فتأسست مدارس خاصة بالكرد والتركمان واليهود والاشوريين والايزيدين والارمن، تدرّس فيها اللغات المحلية الخاصة بالقوميات العراقية اضافة الى دروس الدين. اغلب المدارس الحكومية اعتمدت على المنهج العثماني بعد استبدال اللغة التركية بالعربية حسب قرار المستعمِر البريطاني الذي كان يحكم البلد يومذاك. اما المدارس غير الحكومية فاعتمدت على منهجها الخاص في تعليم لغاتها القومية وصيانة معتقداتها الدينية. ففي عشرينيات القرن الماضي تأسست خمس مدارس آشورية خاصة في المدن العراقية الرئيسة، حملت التسمية القومية الواضحة في أسمائها الرسمية المعلقة على واجهات ابنيتها، وهي: المدرسة الآثورية في الموصل (1921- 1934/1933)، المدرسة

الانجيلية الآثورية في بغداد (1921–1974)، المدرسة الآثورية الأرمنية المتحدة التي أسست بدءاً في بغداد في معسكر هنيدي (1924–1937) ثم انتقلت الى الحبانية (1938–1944)، المدرسة الآثورية في كركوك (1928–1974)، والخامسة المدرسة الآثورية في سرسنك (1929–1952)[1]. تميزت هذه المدارس بشكل اساسي بتعليم اللغة السريانية والدين المسيحي فضلاً عن المواد التعليمية العامة، وحرصت على تدريس اللغة القومية بشقيها السريانية الكلاسيكية التي تستخدم الى وقتنا الحاضر في معظم الكنائس الشرقية كلغة طقوسها، واللغة المحكية المسماة شعبياً بالسوريث السائدة عند الاشوريين المشتتين في الشرق الاوسط وفي الشتات. هذه السوريث هي احدى اللهجات الارامية الحديثة الشمالية الشرقية المعروفة علمياً بالمختصر (NENA)[2]، والتي تعتبر بمثابة اللغة القومية المعاصرة لمعظم اشوريي اليوم بعد ان غدت لغة الادب والفن والصحافة والاعلام.

واكب التعليم السرياني الرسمي خمس حقب سياسية في العراق الحديث: الانتداب، الاستقلال، العهد الوطني، تجربة الاقليم وعهد التغيير السياسي بعد نيسان 2003. فتأسيس المدارس الاشورية الخاصة التي طانت معنية بتدريس اللغة السريانية كان في عهد الانتداب البريطاني المباشر 1921–1932، وواصلت مسيرتها في عهد الاستقلال 1932–1958, الا ان رسالتها التعليمية بدأت تتعثر في العهد الوطني والذي ابتدأ منذ 1958 وتوج تعثرها بتأميم المدارس الخاصة في العراق عام 1974[3]. علماً ان حكومة بغداد كانت قد اقرت حقوقاً ثقافية للناطقين بالسريانية منذ عام 1972 تمكنهم من تدريس لغتهم القومية رسمياً في المدارس الحكومية التي يزيد عدد طلبتها الناطقين بالسريانية على 25 %، الا ان ذلك القرار السياسي لم ينفذ جدياً وبقي للاستهلاك الدعائي للحكومة العراقية، فلم يعره الآشوريون القوميون إهتماماً يذكر!. اما الحقبة الرابعة فتتمثل بتجربة التعليم السرياني في أقليم كردستان بشمال العراق بعد خروج المنطقة الكردستانية من سيطرة الحكومة المركزية في بغداد في اعقاب حرب الخليج الثانية وبعد سريان مفعول المنطقة الآمنة، حيث بدأ التعليم باللغة السريانية في الاقليم منذ 1993 ولا زال مستمراً حتى اليوم، وينتظم الطلبة

---

[1] تغيرت أسماء غالبية المدارس الآثورية الاهلية بعد مذابح الآشوريين في سميل بشمال العراق التي وقعت في صبف عام 1933، فمثلاً المدرسة الآثورية في الموصل أصبحت :مدرسة الفلاح"، والآثورية الانجيلية في بغداد تغيرت الى "مدرسة التقدم" والآثورية في كركوك الى "مدرسة انستاس الكرملي"، والآثورية في سرسنك الى مدرسة "الامير عبدالاله ".

[2] North Eastern Neo-Aramaic dialect

[3] وان اغلقت المدارس الآثورية الرسمية بتأميمها عام 1974 ، الا ان تعليم اللغة الام ظل مستمراً في العراق، فمعظم كنائس العراق اخذت على عاتقها مهمة تعليم اللغة لمؤمنيها ونخص بالذكر كنيسة المشرق التي تولت لجان شبابها المتخمة بالعناصر القومية المخلصة وبخاصة في العاصمة بغداد تدرس اللغة في دورات صيفية خاصة كان ينتظم فيها الصغار والكبار ومن كلا الجنسين على السواء سعياً لتعلم اللغة والاطلاع على أدبها الثر.

في 36 مدرسة ابتدائية ومتوسطة واعدادية بفرعيها العلمي والادبي، ويجري تعليم اللغة فيها على تقليدين: التعليم باللغة السريانية لكافة المواد المنهجية، فاللغة والدين بالسريانية الفصيحة وبقية المواد كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والجغرافية والتاريخ .. الخ بالسريانية المعاصرة (السوريث)، اما التقليد الثاني فللغة التعليم هي الكردية باستثناء درسي اللغة والدين فهما تدرسان بالسريانية. اما الحقبة الخامسة والاخيرة فقد بدأت مع التغيير السياسي الذي وقع في العراق بعد نيسان 2003, والذي مهد الى تأسيس قسم خاص باللغة السريانية في كلية اللغات بجامعة بغداد لتلحق السريانية بركب زميلاتها اللغات العراقية المحلية الكردية والتركية اللتان سبقتهما في اروقة التعليم الجامعي. افتتح القسم رسمياً بموجب كتاب مجلس الحكم المرقم 1228 في 2004/3/31 واعتباراً من السنة الاكاديمية 2005/2004 [4]. تخرج في القسم السرياني لحد الآن ثلاث وجبات من الطلبة ذكوراً وإناثا وفي حوزتهم شهادة البكالوريوس في آداب اللغة السريانية ولاول مرة في العراق وربما في المنطقة ايضاً !. ويذكر ان اللغة السريانية والارامية كانتا تدرّسان في سبعينيات القرن الماضي في كلية الاداب ثم في كلية اللغات في قسم اللغة العبرية حيث لا زالت تدرّس كلغات مساعدة. كما ان قراراً مهما قد صدر مؤخراً من رئاسة حكومة أقليم كردستان يوعز بفتح قسم للغة السريانية في احدى جامعات الاقليم بعد طلبات وتوصيات كثيرة قدمتها الى المراجع المعنية في أقليم كردستان مؤسسات أبناء شعبنا المختصة والمهتمة بشأن تعليم اللغة السريانية أكاديمياً ومنها: المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية في اربيل ودار المشرق الثقافية في دهوك والاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين (مكتب الأدباء السريان) وغيرهم.

استطاع السريان خلال هذه الحقب من مواصلة عملية تعليم اللغة الام لتمكنهم من اركانها الثلاثة: المُعَلِّم (الكادر التعليمي) والمُتَعلِم (التلميذ) والمُعَلَّم (المنهج). ربما كان التعليم السرياني في مرحلة التأسيس اكفأ من التعليم الحكومي العام لمحدوديته وسهولة توفير منهجه لما تتمتع اللغة السريانية الكلاسيكية من تراث أدبي وعلمي مدون منذ القرون المسيحية الاولى، وكذلك توأمتها الحية السوريث التي دونت بشكل واسع منذ منتصف القرن التاسع عشر، بعكس المدارس الكردية مثلاً التي جابهت نقصاً في اللغة الكردية الأدبية الحقيقية فضلاً عن النقص الحاصل في النصوص الكردية [5]. وفضلاً عن تعليم اللغة وحفظها ورفد التلاميذ بالقيم الدينية المسيحية، فقد ساهمت

[4] ترأس القسم الجديد د. يوسف قوزي لمدة اربع سنوات، وكان كانت السطور مقرراً للقسم لمدة سنتين 2004 و2005، اما رئيس القسم حالياً فهو الاستاذ بهاء عامر وهو من الاساتذة العرب المختصين باللغات السامية.

[5] راجع هنري فوستر، نشأة العراق الحديث، ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي، الجزء الثاني، بغداد 1989، ص 426.

المدارس المعنية باللغة الام في بلورة الوعي القومي عند الاشوريين والذي توج بمطالبهم مراراً بحقوقهم القومية والسياسية في العراق الحديث منذ ان وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها في 1918 ولا زال مطلب الحكم الذاتي في مناطق تواجدهم التاريخية حلماً يراود ذريتهم. كما ساهم التعليم باللغة القومية في النهضة الادبية الاشورية الحديثة بعد الكم المبدع من الشعراء والأدباء والمثقفين الذين انتجتهم مدارس التعليم السرياني، وكان للتمدن وتقليد الحضارة الغربية وبالاخص الانكليزية منها مكاناً في النشاطات الثقافية والاجتماعية والرياضية لهذه المدارس انعكس في تميز المجتمع الاشوري باستعداده لمواكبة التجدد والتمدن، فلا عجب ان يكون رواد المسرح والموسيقى والرياضة وو... في العراق الحديث من ابناء هذا المكون القومي الأصيل.

اهم المصادر:

ـــ روبين بيت شموئيل، المدارس الآثورية الخاصة في العراق في القرن العشرين، هولندا: 2008، وهي اطروحة ماجستير فير منشورة (باللغة الانكليزية).

ـــ هنري فوستر، نشأة العراق الحديث، ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي، الجزء الثاني، بغداد 1989.

ـــ عبد الرزاق الهلالي، تأريخ التعليم في العراق في عهد الاحتلال البريطاني (1914–1921).

من اولى مهام القسم هي تطوير اللغة السريانية والنهوض بتراثها الثر وخلق كادر متخصص بها، يخدم التعليم السرياني وينشط حركة الترجمة منها واليها لمواكبة العصر من جهة، ولاحتواء المستقبل الزاهر الذي ينتظر السريانية من جهة اخرى . فاللغة هي الدعامة الأقوى التي تؤسس لاية قومية وحدتها وتصوغ هويتها وتمنحها عنوان تفردها وتحث ابناءها على الابداع والعطاء في كل ميادين الحياة تجسيداً لمصداقيتها في التميز والتواصل، فهي تشكل ركناً مهماً في قضية الوعي القومي لاي شعب، وكنتيجة مباشرة لهذا الوعي شهدت السريانية خلال العقود الثلاثة الاخيرة نشاطاً محموماً قطعت فيه اشواطاً بعيدة نحو العصرنة والاستقرار والثراء، الا ان ذلك النشاط لم يكن اكاديمياً كما ينبغي ان يكون! لان القائمين عليها والمهتمين بارثها درُسوها على الغالب في الكنائس وتحت خيمة الدين غفلاً عن عيون السلطة وتعسف الانظمة الشمولية التي تسلطت على نشاط الناطقين بها، وعليه لم يستطع اهلها من حل بعض مشاكلها بالطرق الاكاديمية المعتادة. ونرى ان قسم اللغة السريانية بانطلاقته العلمية المرجوة، وبادائه المسؤول كفيل بحلها وتخليصها من امراض العوق اللغوي ومحاولة الحاقها بركب التطور الطبيعي الذي يصيب كل لغة والذي حرمت السريانية منه اثر الحيف الذي لفها نتيجة سياسة الحكومات اللاوطنية التي حكمت العراق في حقب طويلة، وبالتعاون الجاد والمثمر مع كل المهتمين بها داخل الوطن وخارجه، فلغتنا القومية المشتركة هي ملكنا جميعاً مهما اختلفنا في اللاهوت الكنسي او اللون السياسي او الموقع الجغرافي او التلفظ اللهجوي، وكل ورثتها معنيون بانمائها بشكل او بآخر

لماذا قسم للغة السريانية في كلية اللغات ؟

انه حق طبيعي لنا وللغتنا صُدِرَ منا في العهود السابقة

في كل هذه الحقبة الطويلة واصلت لغتنا عطاءها اللغوي نشطة ثرية واسعة الانتشار طوراً، ومحدودة متقوقعة على ذاتها أطواراً اخرى. دعني اتسائل .. لغة يصل امتدادها التأريخي وخصائصها اللغوية الى امها الاكدية الآرامية، ولا زالت شريحة فاعلة في النسيج العراقي تمارس حياتها الثقافية وطقوسها الدينية بها .. الا تستحق ان يخصص لها قسماً مستقلاً، وان يدون او يرسم عنوانه بلغته السريانية ويعلق الى جانب عناوين الاقسام الاخرى في واجهة كلية اللغات في عراقنا الجديد.

هل ترى ضرورة اكاديمية وعلمية لتأسيس هذا القسم ؟

نعم هناك ضرورة اكاديمية وعلمية لقيام هذا القسم لتطوير اللغة السريانية والنهوض بها من جهة، وخلق كادر متخصص يتعامل بها في الشأن التعليمي والترجمة من جهة اخرى. نعتقد ان اي شعب لا يمكن ان يطور نفسه الا بلغته الام، ثم ان العالم المتمدن لا يحترم شعباً يتحث بلغة غيره. كما ان العلم وادب هما اللذين يطورا اللغة. فالانسان في حياته الدراسية العادية يتلقى على سبيل المثال درساً واحداً في اللغة مقابل خمسة دروس في العلوم المختلفة كالفيزياء والكيمياء والرياضيات والاحياء والحاسبات ..والخ ، لكن تبقى اللغة هي مفتاح التطور، فبتطورها ينهض الشعب الناطق بها وبانتكاستها ينتكس ، والشعب الذي يعكف على تطوير لغته واحترامها يمضي قدماً في رحاب الحياة .

لمن يعود الفضل في فتح هذا القسم ؟

الفضل الاول براينا يعود الى الشعب الآشوري الذي تشبث بلغته الام رغم هول الظروف القسرية والمأساوية التي اكتنفت صراعه مع البقاء . ماضي شعبنا الموشح بالظلم والغبن والمذابح والاضطهاد والتعريب لم تثنه من التمسك بلغته القومية نطقاً وكتابةً فلم يفرط بها في احلك الظروف، بل حافظ عليها وعلى ارثها كحفاظه على حياته وأصالته. كان شعبنا يعي بان اي اهمال او تقاعس في اللغة الام او عدم الاكتراث بها ينخر كيانه كشعب متميز وعريق في هذه البقعة من العالم، فيصبح من حيث لا يدري ناطقاً بلغة غيره كما حصل لبعض فئاته !. كل هذا الاصرار والوعي الشديد باهمية اللغة مهد الى حقن لغتنا بروح الحياة والتجدد وابعدها عن الجمود الفكري والثقافي وبالتالي ابعدها عن الخطر المحدق بها وانتشلها من الركون والانزواء في بطون القواميس !. لكل هذا الجهد الذي دأب ابناء شعبنا على بذله يعود الفضل في فتح قسم للسريانية في اعرق جامعة عراقية وشرق اوسطية الا وهي جامعة بغداد .

وبهذا الصدد لا نخفي حاجة قسمنا الى الاطلاع والاستفادة من تجارب وخبرة جامعات العالم التي تدرس السريانية في مناهجها، ونطمح ان نمد جسوراً مع اساتذتها ومكتباتها اما بشكل مباشر او عن طريق الانترنت للاطلاع على المدونات السريانية التي تقبع في خزائنها تسهيلاً لمهمة الباحثين والدارسين في قسمنا وكليتنا .

كيف ترى مستقبل السريانية ؟

مستقبل السريانية يبشر بالخير .. ولتأمين ذلك المستقبل وتعجيله سوف نبحث عن أساليب وطرق علمية رصينة في تطويرها. بالتأكيد سنحتاج الى حركة ترجمة واسعة لا بد من التهيؤ لذلك منذ الان، نحن بصدد خلق كوادر قادرة على النهوض بهذا العبء الثقيل، اذ سنقوم بترجمة مختلف العلوم اليها بعد ان كانت مختلف العلوم تترجم منها او عن طريق ناطقيها ! لقد استخدم العرب في سالف الايام مترجمين سريانياً مكنوهم من تراث السريانية فاتسعت حركة الترجمة الى العربية بشكل خصب وبالاخص في زمن الخلفاء العباسيين حيث اغتنت منها كثيراً ، ربما ستحتاج السريانية في قادم الايام الى مترجمين عرب لتتمكن من تراث العربية وخزينها المعجمي الكبير مقارنة بشقيقاتها السامية. كما اننا سنقوم بسرينة بعض المصطلحات والرموز اللغوية الحديثة المنتشرة في اللغات المهيمنة على ثقافات العالم الجديد. سنحاول التلاقح مع كل البراعم السريانية المتفتحة في حقولنا للحصول على اجود الثمار. وسنحث على استخدام اللغة في كل الحقول من دون تهاون ولا نخجل من ان نقترض من شقيقاتها وبالاخص شقيقتها الكبرى العربية كلما دعت الحاجة الى ذلك، فاللغات كالاوطان تتبادل المنفعة فيما بينها لتأمين رقيها. ولا بد من ان نذكر ان مساحة النشر بالسريانية اتسعت أفقياً في السنين الاخيرة بشكل لا بأس به وبالاخص بعد تيسر التكنلوجيا الحديثة المتمثلة بالخدمات التي يقدمها الحاسوب. كما ان استخدام اللغة في المجال الاعلامي بكل تفرعاته وبهذا الشكل المكثف سيخدم مستقبل السريانية الى حد كبير ويفتح امامها افاقاً جديدة.

ممن يتشكل الهيكل الاداري والتدريسي للقسم السرياني ؟

لذا فان الهيكل الاداري والتدريسي في قسمنا لم يقتصر على ابناء جلدتنا ، عنصر الكفاءة يهمنا كثيراً، لنا اساتذة عرب أكفاء في القسم مختصون باللغات السامية. القسم يخضع اداريا وماليا الى قوانين

وأنظمة جامعة بغداد، فهناك رئيس قسم ومقرر القسم والاساتذة والسكرتارية وامانة المكتبة، وهناك اسوة بالاقسام الاخرى ضوابط مالية ونظام محاضرات ورواتب.

هل سيقتصر القسم السرياني على قبول ابناء الناطقين به دعماً لخصوصيتكم ؟

اولاً نحن عراقيون قبل ان نكون اي شيء اخر، وكعراقيين نسعى لتخليص وطننا من أمراض ومظاهر الاستعلاء تجاه الاخر، وعينا الوطني يحثنا على احترام كل ألوان الطيف العراقي الجميل وبالمقابل نطالب اخوتنا في الوطن والحياة ان يحترم لوننا وتراعى خصوصيتنا. فبهمة كل العراقيين الغيارى نسعى لجعل بغداد مركزاً للدراسات السريانية في العالم بدلاً من لندن وبرلين وتورنتو وشيكاغو وغيرها. لكن اود ان اوضح ان قسمنا اقتصر هذه السنة على قبول الناطقين بلغتنا لاسباب خارجة عن ارادتنا، نطمح ان نستقبل في السنوات القادمة طلبة من القوميات الاخرى، فنحن نرى انه يحق لكل عراقي ان يدرس السريانية ويتعلمها ويتحدث بها ان شاء وهذا شرف كبير لنا كأبنائها الأصليين الناطقين بها، وان كانت هناك ثمة اشكالات او معوقات في مسألة القبول فنرجو حلها سريعاً، والا لماذا يحق للعراقي ان يدرس العبرية والتركية والفارسية وغيرها ولا يحق له ان يدرس السريانية وهي الاقرب الى العربية معنى ومبنى. فاذا سمح لقسمنا بقبول طلبة من بقية القوميات العراقية المتآخية فسيكون تأثيرهم ايجابياً على الواقع الاجتماعي والثقافي لبلدنا وسيزيل آثاراً نفسية عميقة ويكسر قيوداً عانينا من وزرها كثيراً ! عراق الغد مقبل على الانفتاح على كل الاصعدة .

الى اين سيذهب خريج السريانية ؟

قسمنا سيمنح شهادة البكالوريوس في اللغة السريانية ودبلوم في اللغة الانكليزية كاختصاص ثان، لذا سنهتم بتخريج مدرسين مؤهلين لتدريس السريانية في التعليم الثانوي ومترجمين منها واليها . يحرص القسم على رفد تلميذه بالسريانية معلومات دقيقة حول اللغة من حيث فقهها، اصولها وظواهرها اللغوية التي تحتاج الى المزيد من التقصي والبحث الاكاديمي لحث الطلبة وتشجيعهم وترغيبهم منذ الان في مواصلة دراساتهم السريانية العليا من جهة، ومن جهة ثانية ليتسنى لهم تقديم رسالتهم العلمية بطريقة كفوءة. خريج السريانية سيتمكن باذن الله من ثلاث لغات وهي السريانية لغة تخصصه العلمي الاول والعربية لغة وطنه وثقافته والانكليزية لغة نافذته الى العالم التي درسها لمدة عشر سنوات في دراسته المنهجية ، كما سيكون على دراية لا بأس بها من اربع لغات اخرى لها وشائج عديدة مع السريانية وهي الاكدية والارامية والمندائية والعبرية. فهذا الخزين اللغوي سينعكس ايجاباً على شخصية خريج السريانية ويضفي عليها بعداً معرفياً متميزاً، ويفتح امامه أبواباً عدة ربما غير مطروقة !.